الشوق إلى الأرض الطيبة

محمود الريماوي

مجلة النكبة التي لم تنتهِ

نحو عودة لاجئين فلسطينيين
العدد ٦، أيار ٢٠١١

ولد محمود الريماوي عام ١٩٤٨، وقد مضى معظم سنوات حياته في مدينة أريحا حتى عام ١٩٦٧. تنقّل بين بيروت، القاهرة والكويت لمدة تقارب العشر سنوات حيث عمل بالكتابة الصحفيّة. منذ عام ١٩٧٨ يسكن في مدينة عمّان ولديه عمود يومي في صحيفة "الراي" الأردنية. نشر الريماوي مجموعات قصصية عديدة ومنها: "العرب في صحراء ليليه" (١٩٧٢), "الجرح الشمالي" (١٩٨٠), "كوكب تفاح وأملاح" (١٩٨٧), "ضرب بطيء على طبل صغير" (١٩٩١), "غرباء" (١٩٩٣), "القطار" (١٩٩٦), "شمل العائلة" (٢٠٠٠). وقد نُشرَت قصته "الشوق إلى الأرض الطيبة" في موسوعة الادب الفلسطينيَ المعاصر (تحرير: د. سلمى الخضراء الجيوسي.)

نزع أبو العبد كوفيته وعقاله عن رأسه الأشيب، وألقى بهما إلى جانبه على البطانية المتسخة. أطلق تنهيدة عميقة، فقد كان الحر لا يطاق وليس يجرؤ على خلع ثياب الوكالة عن جسده النحيل، لأن الخيمة تفتقر إلى باب، وقبالتهم بنات وحريم. فك أزرار حذائه الضخم وطوح به إلى الزاوية، ثم مدد رجليه بإعياء بالغ، ووضع تحت رأسه معطفاً عتيقاً كوَّمه كيفما اتفق، واعتمد على راحة يده المتشققة الجافة، في محاولة لا غنى عنها للراحة من تعب الساعات العشر التي أنفقها في أعمال البناء في الجبل المجاور. أم العبد كانت عند جيرانهم في الخيمة المحاذية، تتحدث مع جاراتها عن انقطاع الماء الدائم والعدس المغشوش والعمر الذي مضى منه أكثر مما بقي. ابنته خديجة – قليلة الحظ - تتعلم في شغل الخياطة. أما حسن، الشاب اليافع ابن العشرين عاماً فقد كان وقتها يشرب الشاي ويدخن، وينتصر وينهزم في لعبة الورق، وأخيراً تعلّم شتم الناس بسبب وبدون سبب. "هذا وقد يكون في مكان آخر، من يدري...". تأوه أبو العبد ومسح قطرة عرق كانت تتأرجح على أربنة أنفه. تناهت الى أذنيه الحافلتين بالشعر الكثيف أغنية عن القدس، من مذياع يبدو أن بطارياته جديدة، ولم يستطع عندها أن يغالب دموعه، فانقلب الى الخاصرة الأخرى، وأحس بوجع كالمطرقة يضرب جدران رأسه وقال لنفسه: يلعنها من حياة، وشعر بالنعاس يتسلل إلى عينيه، ولم يكن هناك ما يدعو للمقاومة فاستسلم له بكلتيه. إنه منذ نزح من مخيم النويعمة الذي مكث فيه عشرين عاماً طويلة، أنجب في أوائلها حسن، وبنى داراً من ثلاث غرف في باحتها دالية وشجرة حور، من يومها وهو يحن دائماً الى النوم. وقد قال له بعض العارفين في حلقته المسائية، إن هذا مرض خبيث لا يحسد عليه، وبعضهم صارحه أنه يؤدي إلى النوم الأخير. لكن ما الذي يفقده أبو العبد؟. رويداً رويداً كان وعيه ينحسر إزاء مد النعاس الذي يجتاح أهدابه، فيما كان هواء لافح مغبّر يعبث بأشياء خيمته، ويغمر وجهه المكدود بعرق دبق غزير. جلبة الأولاد في الخارج يسمعها كالطنين. الهواء الذي يمر على وجهه يجعله يتخيّل أنه يمضي في رحلة مضنية لا تنهي، في حالة سفر دون وصول. راحة يده تحت رأسه أصبحت مبتلة، سحبها، وكان المعطف خشناً، كثيف الوبر كما لو أنه ينام على شوك وحيداً في أرض مجهولة مقطوعة الأسباب بالعالم. الجبنة والتبغ لم يتركا في فمه ماء ليبتلع ريقه. نهض بتكاسل باحثاً عن إبريق الماء، ليشرب. تطلع حواليه برجاء وفي القعر. جعل الإبريق في وضع عمودي على فمه، وامتص بنهم القطرات البخيلة، اصطكت بأسنانه حصوة صغيرة عرقلت استمتاعه، بصقها ثم بصق مرة أخرى بصقة مستقلة، بيد أن طعم التراب ظلّ في فمه. عاد ليرتمي مرة أخرى على البطانية وكأنه يود أن يهرب من أمر مجهول يتربصه. عزم أن ينام نوماً طويلاً، حتى لو أدى ذلك إلى نومه الأخير، لكن التعب الذي يسري في رجليه، كان يعاكس رغبته. أخذ يجعل رجليه في أكثر من وضع كي يبدد التعب، ولم يفلح في ذلك حتى ضاق صدره وضجر. تأكد أن جهوده لا تثمر وسيظل معلقاً هكذا بين أرض اليقظة وسماء النوم، فاكتأب، وخشي أن يكون ذلك بداية لمرض ما يحرمه من نصف الدينار الذي يتقاضاه من صاحب البناية في الجبل المجاور. لعن ابنه حسن الشاب الفالت الذي لا يبحث عن عمل، ويظل يتغيب عنهم. أما مصطفى الذي يشتغل في الكويت من خمس سنوات، فإنه لا يلتفت إليهم إلا في العيدين، يبعث ورقة خضراء يستلمها حسن ويتصرّف بها على مزاجه. ثم يقول اللعين أنه سيتزوج وخديجة لم تنستر بعد. خارج خيمته يبدو أن الشمس توشك على إتمام رحلتها اليومية، دون أن تتيسّر له ساعة أو ساعتان من الإغفاء. كان ذهنه متعباً ومختلطاً من فرط التفكير والتذكير، وقد وصل الآن ذروة الاشتباك فلم يعد يفكر بشيء أو تخطر على ذهنه ذكرى. هش لهذه الحالة، فغالباً ما تكون توطئة للتوغل في غابة النوم والنسيان.

لم تمض لحظات حتى راح أبو العبد ومعه فصول عمره الحزينة في نوم عميق، من أوضح مظاهرة شخيره الحاد المتقطع كصوت حيوان غب الذبح، بينما كان ذبابة مشاغبة، كبيرة الحجم وملحاحة، تنتقل على معالم وجهه فتجعل منظره لمن يتفرّس فيه غير صحي أبداً. الطريق من مخيم النويعمة الى الضفة الشرقية للنهر طويلة وشائكة. وعندما تسلكها اسرة كاملة، في منتصف الصيف، مشياً، تبدو العملية أشد عناء ومشقة، واحتمال الموت قائم أكثر من الحياة. لكنه، في الواقع قطعها. فقد كان هناك ما يدفعهم، من الخلف دفعاً، إلى الخروج. أم العبد أغاظته في الطريق، تريد أن ترتاح ساعة كل نصف، بينما المسافة بعيدة، والطائرات لا ترحم، والذهول يجرد الأعصاب ويستفزها. أريحا وراءهم تغوص في طوفان من الدخان، وقلبه يفيض وأنفاسه تكاد تنقطع: يا الله ما أقساها من دنيا، ما ألعنه من وقت، كيف يحدث ذلك؟. أم العبد تجرجر الستين عاماً، وأكثر من تساؤل استنكاري مبهم يطل من عينيها. حسن كان نشيطاً متوتراً، وقد تردد كثيراً في أن يسأل والده: لماذا لا نبقى مثل غيرها الذين بقوا؟. خديجة خائفة، والبطانيات على ظهرها ثقيلة. قالت لأمها أنها نسيت الراديو مفتوحاً، فألجمتها بنظرة غضب. وعادت تسأل: دار أبو حليمة هل خرجوا؟ غير أن ثقل البطانيات أرغمها على الانتباه. أبو العبد رغم أنه كان غير مصدق لما يحدث، لكنه بدا وهو يغذ سيره كما لو أنه كان يتوقع ذلك. في الحرب تبدو الحياة والموت جد مختلفين، وقد يختلطان. المعركة لم تكن انتهت، واحتمال الموت والحياة لم يزل مثاراً، وله مذاق مميز في الفم. أبو العبد كان يخشى أن تنفرط الأسرة. أن يفقد مثلاً آخر العنقود حسن. أو تلك الحزينة خديجة. أو رفيقته التي أحبها ذات يوم في بيت دجن. في الـ ٤٨ أجهزت رصاصة على شباب بكره العبد، وكم مضى من العمر وهو يتحسّر، وكم عذبته الكوابيس، وطاردته الهواجس. عند مشارف صويلح أقلتهم سيارة تراكتور، فقد كان حظه كبيراً لأن سائقها كان جاراً لهم في المخيم. وعندما صعد إلى الناقلة الخلفية كاد يتعثّر لما اشتبك سرواله بحافة الباب، وجاءته خاطرة مريرة إذ تذكّر

الغجر الذين لا يقيمون، فانتابه تعاطف غريزي معهم، وخشي كثيراً أن يلتقي مصيره بمصيرهم آخر الأمر، فأشرقت عيونه بدموع سخينة، غالب نفسه وهو يخفيها عن عيون حسن. كان جسده يتمايل من أثر السرعة والزحام وعدم الارتكاز، والسقوط والنهوض يتناوبانه.

ظلّت نظرته مرشوقة الى الغرب، وسيارة التراكتور تنأى به بعيداً، وتهب المسافات. كان وجدانه يقطر حقداً مفجوعاً على الذين يخلعون الأشجار. أطلّت جبال عمّان، وأخذ يتخيّل كيف تكون لقياه بأقاربه، فأحس بالخجل والحسرة. عندما توقفت السيارة هبط الشارع وهو يتفسّخ من الارهاق. افترش أقرب رصيف، ومنحه ظل بناية شاهقة راحة كبيرة، ممزوجة بالتشوق لشيء غامض، وكان اليأس يهيء له أنه لن يلتقيه. فلا أحد يخبر دقائق الأيام السود مثل أبو العبد، ولا أحد يدري بفعل رياح الخماسين مثل أبو العبد، وكيف جعلته في نهاية المطاف لا يملك غير خيمة زرقاء ضيقة تذكر بالتشرد والحياة المؤقتة.

- حسن لم يأت حتى الان.
- لا بد أن يجيء.
- قد يكون ذهب إلى السينما، أو يتسكع.
- لكنه صمم أن يأتي، كان أكثرنا إصراراً.
- قد يكون في الخيمه الزرقاء "السياحية".
- ذهبت إليه بنفسي، هناك والده العجوز ينام عميقاً.
- الغائب عذره معه.
- قد يكون في حاجة إلينا.
- لكن ربما أضاع الطريق.
- لا أحد يعرف الطريق مثل حسن.
- مضى نصف ساعة، أشعر بقلق عليه.
- يا إلهي متى يجيء. أين يكون؟
- كل شيء محتمل الحدوث، من يدري !
- أنا أقول، ربما ينتظرنا هو الآن.
- "لا بد أن حسن"..
- "حلمت أن حسن"..

حتى أدركوا أنهم يهدرون الوقت بلا جدوى. اتفقوا دون مقدمات على أن الوقت ضيق ولا يتسع للثرثره. انفض ثلاثتهم وكأنهم ينفذون قراراً مسبقاً، وفي ذهن كل منهم فكرة تنتسب للغموض والوضوح معاً. فكرة تشف كالحلم وتضيء. التقت عيونهم للحظة كثيفة وكانت لغة العيون تعرب عن اتفاقهم. تفرّقوا ويملؤهم الشعور بان وعداً ما ينتظرهم كي يلتقوا. استيقظ أبو العبد، وكأنه خرج من قاع بئر معتم، والعتمة أيضاً كانت تحتوي حيّز الخيمة الضيق، وتمنع أصابعه المعروقه من التسلل إلى علبة التبغ. راعه أن تكون الخيمة مقفرة ولا أحد، والصمت بهذا الشمول فأدرك أن ثمه أمرأ يحدث. نهض بتثاقل، أخذ يبحث بأمل ضئيل عن المصباح فاصطدم بتنكه الكاز، فسقط على الترابية اليابسة. حدس من جديد أن في الأمر شيئاً لا يبعث على الارتياح منذ خرج في الصباح إلى شغله وهو يستشعر مرارة في فمه، وأنه مكدّر وغير طبيعي. أين أم العبد، ألم تشبع من الكلام؟ وخديجة ما الذي يجعلها تتأخر إلى هذا الوقت، لا بد أنها تلازم أمها. أما حسن فمن يقدر أن يضبطه. لم يحصل أن تركوه وحيداً فماذا في الأمر؟. أطل من أعماقه حزن ملثم غامض الجذور، واستيقظت في خاطره توقعات سوداء. نهض كي يخرج ويسأل الجيران. انتابته الدهشة، عندما رأى المخيم هادئاً ونائماً، فأيقن أن الوقت متأخر وإزدادت مخاوفه.

- أبو يوسف.. يا أبو يوسف.

نهض هذا من فراشه منزعجاً. تبادلا باقتضاب تحية المساء، ثم قال أبو يوسف..

- لماذا حرمتنا منك هذه الليلة؟
- لكن يا حاج، أم العبد وخديجة، أين؟
- آه. صحيح. رأيتهما تبحثان عن حسن. قيل إنه، أنا لم أره، إنه كان يتمشى في المخيم بلباس شبابنا، وسلاحه على كتفه. لا أم العبد ولا خديجة صدقت هذا، كل واحدة أصرّت على أنه أصابه لا سمح الله مكروه، لماذا تستغرب يا أبو العبد، ابني معهم كما تعرف معهم؟.

لكن أبو العبد بدا وكأنه استغرب. تذكّر للتو ابنه العبد الذي اجهزت رصاصة على شبابه، وكم مضى من العمر يتحسّر عليه. انتابه إليه شوق حارق، فاذا بمعالم بيت دجن تلوح له وكأنه في حضرة حلم. أرضه الطيبة في بيت دجن البعيدة. وكاد يبكي الرجل، لكنه انسحب إلى خيمته. لم يتضايق هذه المرة من سطوة الظلام، فقد كان منقطعاً عن المكان، يحدّق في ذاكرته. لم يفطن أن يسأل "كم الساعة الآن". غير أنه كان متأكداً أنه أطال في النوم، وأن ساعة الصباح قريبة.

سِدق – مجلة النكبة التي لم تنتهِ، العدد ٦، أيار ٢٠١١
نَحوَ عودة لاجئين فلسطينيين

هيئة التحرير: عوفر كهانا، أُسنات بار- أور، أيوب أعمر، نورمه موسي، إيتن برونشطين، تومر جردي، عمر الغباري
المحرر: تومر جردي
تصميم: عوفر كهانا وأسنات بار- أور، فرهسيه
إصدار: جمعية "زوخروت" (ذاكرات)
تحرير لغوي وتنقيح: عمر الغباري

الناشران: فرهسيه، زوخروت